وقال وليم بت احد كبار الساسة والخطباء الانكليز لما اتتهُ الوفاة: "آه يا بلادي ما اشد حبي لكِ"

وقال بوب الشاعر الانكليزي وهو يجود بنفسهِ: "ان الصداقة جزءٌ من الفضيلة"

وقال شلر الشاعر الالماني العظيم وهو يلفظ انفاسهُ: "هوذا امور كثيرة تتضح لديَّ ويسهل ادراكها عليَّ"

وكان الجنرال ولف الانكليزي قد أُنفذ لمحاصرة كويبك عاصمة كندا لما كانت هذه من املاك فرنسا. وكانت محاطة بالحصون الطبيعية وفيها من الجيوش الفرنساوية المحنكة ما يكاد يجعل فتحها مستحيلاً. ولكن الجنرال ولف لم ييأس من اخذها. وفي احدى المعارك التي جرت بينهُ وبين الفرنساويين هاجمهم بفرقة من جيشهِ فاصابت ذراعهُ رصاصة كسرتها فربط ذراعهُ بمنديل وتابع الهجوم فاصابتهُ رصاصة اخرى فلم يتوقف فاصابتهُ ثالثة اخترقت صدرهُ فوقع مغشيًّا عليهِ. وبعد قليل هتف الجنود قائلين: انهم يفرون! انظروا كيف يفرون "ففتح ولف عينيهِ كمن استفاق من نوم وقال "من هم الذين يفرون؟" فاجاب الجندي ان الاعداء يفرون لهم يندحرون من كل جانب. فامر ولف بارسال فرقة من الجيش لتقطع عليهم خط الرجوع ولما علم ان اوامرهُ عمل بها قال: "ليتمجد اسم الرب فاني اموت الآن بسلام" وخرجت روحهُ مع كلماتهِ وذلك سنة ١٧٥٩. وبسقوط كويبك تحولت كندا من فرنسا الى انكلترا

ديمتري نجار

الفلسفة العملية

تابع ما قبلهُ

وعدنا في الجزء الماضي ان نتم خطبة الاستاذ جمس الثانية في هذا الجزء ونفصل كلامهُ تفصيلاً يقربهُ من اذهان الذين لم يعتادوا المباحث الفلسفية. ونرى الآن ان لا بدَّ لنا من الاكتفاء بزبدة كلامهِ والتوسع في ما لا بدَّ من التوسع فيهِ لكي يتضح معناهُ لجمهور القراء فالكلام كلامنا ولو كان الاساس الذي بني عليهِ للاستاذ جمس

ذكرنا في الجزء الماضي ان الفلسفة العملية طريقة من طرائق البحث او اسلوب من اساليبهِ يراد بها الوصول الى الحقائق فلا تدَّعي ان هذه الامور او تلك حقائق يجب التسليم بها والوقوف عندها كما يدعي غيرها من المذاهب الفلسفية بل تصرح علانية انها آلة للوصول الى

الحقائق . الا انها لا تقتصر على كونها طريقاً من طرق البحث بل تتناول شيئاً آخر وهو تصور الحقائق على وجه خاص كما جرى عليه الفلاسفة الاقدمون . وهذا هو الامر الذي بيّنه الاستاذ جمس وقال في صدده ما خلاصته

ان اكبر نجاح نجحته العلوم الطبيعية في عصرنا هذا هو انها اعتمدت على الاستقراء في الاستدلال . فرأى العلماء ان ما يجري في الكون يجري طبقاً للقوانين الرياضية والنواميس الطبيعية فاعجبوا بهذا الاكتشاف وحسبوا انهم علموا مقاصد الخالق والنواميس التي سنها لهذا الكون وقالوا ان الله يجري على القواعد المنطقية والقوانين الرياضية فقد جعل الاجرام السماوية تتبع في سيرها قوانين الجبر والهندسة والقطوع المخروطية . ومن قواعد كبلر للسيارات وامر الاجسام الساقطة ان تسارع في سيرها كربع الوقت وجعل النور ينكسر في نفوذه الاجسام الشفافة على اسلوب تبقى فيه النسبة ثابتة بين جيب زاوية الوقوع وجيب زاوية الانكسار وقسم الاحياء الارضية اجناساً وانواعاً وفصائل لا يمتزج بعضها ببعض . وقالوا اننا اذا ادركنا ما بين هذه الموجودات من النسبة ادركنا مقاصد خالقها وفلسفة الكون

ثم ظهر بعد استقراء البحث ان النواميس التي اكتشفها الانسان تقريبية كلها وهي كثيرة جداً حتى يتعذر احصاؤها وكاد يرسخ في الاذهان ان ليس بين النظريات العلمية ما يدل على الحقائق المجردة دلالة قاطعة ولكن كل نظرية من هذه النظريات نافعة من بعض الوجوه في الاستدلال بالمعلومات على المجهولات فهي كنايات جردناها واتفقنا عليها او مصطلحات اتبعناها في التعبير عن الحوادث الطبيعية كأنها لغة اهل العلم ومن جاراهم واللغة الفاظ يراد بها الدلالة على المعاني لا المعاني نفسها وتقبل التغيير والتحوير على صور شتى كما لا يخفى

ولما شاع ذلك قام اثنان من العلماء وهما شلر ودوي وقالا ان الرأي يصير حقيقة اذا افاد في الاعمال وفي التوصل من المقدمات الى ما يبنى عليها وفي اختصار طرق الاستدلال والوصول الى النتائج من اقصر طريق . فكل رأي يصل بين الاسباب والمسببات والعلل والمعلولات ويسهل الاعمال ويختصرها هو حق بنسبة ما يستفاد منه . كأن الحق آلة للوصول الى الاغراض

وقد جرى شلر ودوي في فلسفتهم هذه مجرى علماء الجيولوجيا والبيولوجيا والفيلولوجيا (اي علماء بنية الارض وعلماء الحياة وعلماء اللغات) فان النجاح في هذه العلوم بني على فرض فروض يمكن تعليل امور كثيرة بها مثل فرض فعل المطر والبرد والحر بتفتيت الصخور وجرفها وفعل الوراثة بالنسل وتغير اللغات بالتبديل والتحريف ثم جعل هذه الفروض حقائق

كلية فاعلة في كل زمان ومكان وتحافظ على مرور الازمان . وقالا ان التعميم في هذا الامر مثل التعميم في كل امر سواءٌ او مثل انتقال الانسان من معتقد الى معتقد آخر فانهُ يكون في نفسهِ امور يعتقد صحتها او يسلّم بها ثم تحدث لهُ حادثة لا تنطبق مع ما يعتقدهُ ويسلّم بهِ فيقع في نفسهِ نزاع لم يختبرهُ من قبل ويحاول التخلص منهُ بالتوفيق بين معتقداتهِ السابقة وما حدث لهُ بحيث لا تنتقض معتقداتهُ كلها او يبقى منها الجانب الاكبر غير منقوض لان الانسان ميَّال الى الاحتفاظ بما عندهُ فيغيّر عقيدة بعد اخرى الى ان يصل الى فرض جديد يراهُ مفسرًا للحادثة الجديدة ولا ينقض كثيرًا من معتقداتهِ القديمة فيتمسك بهِ مسرورًا كأنهُ ضالتهُ المنشودة

هذا وقد رأينا ان نوضح ذلك بامثلة مألوفة لا سيما وان امثلة ذلك اكثر من ان تحصى وهي تتخلل اعمالنا اليومية . ندخل معملاً من المعامل ونرى فيهِ رجلاً يجول بين العمَّال فنظن انهُ مدير المعمل ثم نراهُ يأمر وينهى فيتحقق ظننا ونحكم كذلك واذا خرجنا حينئذٍ من المعمل قلنا اننا شاهدنا مديرهُ فيهِ ولكن قد يتفق قبلما نخرج ان يدخل المعمل رجل آخر ينظر اليهِ العمَّال نظر الوقار ويقف امامهُ الرجل الذي ظنناهُ مديرًا وقفة المأمور امام الآمر فيتغير حكمنا ونعتقد ان هذا الرجل الثاني هو المدير لا الاول وان الاول وكيلهُ او نائبهُ . وقد يأتي رجل ثالث يقف امامهُ هذان الاثنان وقفة المأمور امام الآمر فيتغير حكمنا الثاني ونحكم ان الرجل الثالث هو المدير الحقيقي . ولم نكن مخطئين لما حكمنا على الرجل الاول انهُ المدير لان كل ما رأيناهُ حينئذٍ كان يدل على ذلك ولا كنا مخطئين لما حكمنا ان الرجل الثاني هو المدير لان كل ما رأيناهُ الى حين حكمنا كان يدل على ذلك مع ان الحكمين فاسدان امام ما عرفناهُ لما دخل الرجل الثالث

ونطالع كتابًا فنرى فيهِ كلمة لا نعلم معناها فنفرض لها معنًى يوافق الجملة التي رأيناها فيها ثم نجدها في الصفحة الثانية والثالثة والمعنى الذي فرضناهُ لها يصلح ان يكون معناها في هاتين الصفحتين ايضًا فنحكم انهُ هو معناها الحقيقي ثم نجدها في الصفحة الرابعة ولكن المعنى الذي فرضناهُ لها لا يستقيم هنا فنفرض لها معنى آخر يصلح لها في هذه الصفحة وفي الصفحات الثلاث الاول وهلمَّ جرًّا الى ان نصل الى المعنى الحقيقي الذي يشملهُ كل مكان وردت فيهِ في ذلك الكتاب فنرتاح الى ذلك ولاسيما اذا وجدنا ان المعنى الاخير الذي وصلنا اليهِ بالفرض والاستقراء يصلح لتلك اللفظة حيثما وجدناها في غير ذلك الكتاب ولكن اذا وجدنا انها تستعمل في كتاب آخر بمعنى آخر اضطررنا اما ان نفرض لها معنيين او ان نحاول تطبيق المعنى الجديد

على الاماكن التي وردت فيها في الكتاب الاول ونحن في كل ذلك مصيبون حسب ما لدينا من وسائل الاستدلال على الحقيقة

تنام ليلاً ثم نستيقظ ونحن نسمع صوتاً في خزانة فنحسب ان فارةً دخلتها وهي تقرض خشبها فنضرب على الخزانة بيدنا فيبطل الصوت فنقول ان الفارة هربت ثم يعود الصوت من الخزانة فنقوم ونفتحها ونفتش عن الفارة فلا نجدها ولكن لا ينتفي ظننا الاول لان الفيران تفعل ذلك ويعود الصوت الى الخزانة فنقوم ونضع فيها مصيدةً ويمضي يوم ويومان والمصيدة لا تصيد شيئاً فنرتاب في صحة ظننا ثم تقع فارة في المصيدة في اليوم الثالث فنرتاح الى ذلك ونقول قد اكتشفنا حقيقة الصوت وسكتنا الفارة التي سببته وننام تلك الليلة ويعود الصوت الى الخزانة كما كان قبلاً فنقول انها فارة اخرى اخت الاول ونعيد المصيدة وتمضي ايام ولا تقع فارة اخرى ولا يزال الصوت على حاله فنأخذ نفتش في الخزانة عن سبب آخر له فنجد ثقباً في خشبها ونستدلُّ منهُ على سوسة في الخشب تنقرهُ فنفتش عنها وننزعها فيبطل الصوت تماماً ونقول حينئذٍ اننا عرفنا الحقيقة واكتشفنا السبب الحقيقي للصوت

تصاب امرأة بمرض عصبي وتأتيها امها بماء تفل فيهِ احد الشيوخ وتسقيها اياهُ فتشفى ويشيع في البلد ان الماء الذي يتفل فيهِ ذلك الشيخ يشفي من الامراض ثم تصاب امرأة اخرى بمرض مثل الاول فيسقيها ذووها ماء تفل فيهِ ذلك الشيخ فتشفى ايضاً فيقع في الاذهان ان الماء الذي يتفل فيهِ الشيخ يشفي الامراض ويحسب اهالي البلد انهم اكتشفوا حقيقة نافعةً لهم ولغيرهم ويذيع اسم الشيخ في الكرامات . ثم تمرض امرأة ثالثة وتسقى ماء تفل فيهِ فلا تشفى ولكن لا ينتقض الاعتقاد الاول بل يفسَّر عدم شفائها بانها لم تؤمن بفعل الماء او لم يؤمن ذووها بفعلهِ . ثم يعلك الشيخ بعض الجرائم فيقع شيء من الريب في نفوس المعتقدين بهِ لان الكرامات لا ينتظر ان تأتي على غير يد الصلاح . ويبحث احد العلماء في الحوادث التي شفيت من شرب الماء الذي تفل فيهِ ذلك الشيخ فيجد ان اعراضها تدلُّ على انها من الامراض الهستيرية الوهمية اي انها لم تكن امراضاً حقيقيةً بل اوهام توهمها النساء فزالت من نفسها لما توهمنَ انهنَّ شربنَ دواء يزيلها . وقس على ذلك اموراً لا تحصى تقع للانسان كل يوم

والذي يبلغهُ رأي جديد او يكتشف رأياً جديداً يكون في نفسهِ آراء قديمة مخالفة للآراء الجديدة فتأخذ الآراء القديمة والجديدة تتنازع السيادة في نفسهِ ويكون عقلهُ اميل الى آرائهِ القديمة فيأخذ يناقض الآراء الجديدة ويدافعها ثم يأخذ يطبقها على آرائهِ ومعتقداتهِ

القديمة كأنهُ يريد ان يصطلح معها بأقل ما يكون من الخسارة او ان ينزع من نفسهِ اقل ما يكون من الآراء القديمة و يبقي فيها اكثر ما يمكن منها الى ان يجد سبيلاً للتوفيق بين الجديدة والقديمة فيسر بذلك ويرتاح اليهِ

مثال ذلك ان علماء الطبيعة وصلوا بعد البحث والمراقبة والامتحان الى القول ببقاء القوة وبانها محدودة تتحوّل من شكل الى آخر ولكنها لا تزيد ولا تنقص ابداً . وكل الاعمال والمكتشفات جاءَت مؤيدة لذلك ثم كُشف الراديوم فاذا بهِ يشعُّ قوةً غير محدودة حسب الظاهر فلا تفرغ منهُ ولو استمرَّ على اشعاعها الى الابد . فهذا يناقض ناموس الطبيعة الذي حكمنا انهُ ناموس عام فاضطرب العقل لما اكتشف هذا الاكتشاف ثم رأى ان القوة التي يشعها الراديوم كانت مذخورة في جواهرهِ ومتى اشعها كلها في سنين كثيرة نفدت منهُ فاضفنا الى معلوماتنا السابقة ان القوة قد توجد مذخورة في دقائق المادَّة وما بقي منطبق على المعلومات السابقة ومؤيد لناموس حفظ القوة فارتاح العقل لهذا الاكتشاف

ومن هذا القبيل القول ان الاجسام تتمدَّد اذا سخنت وتتقلص اذا بردت فان البحث والمراقبة والامتحان اثبتت كلها صحة هذا الناموس ثم ظهر ان الماء يجري على هذا الناموس الى حد محدود ومتى تجاوزهُ واشتدَّ بردهُ حتى صار جليداً لم يعد يتقلص بل صار يتمدَّد فظهر في اول الامر ان ناموس التقلص بالبرد منتقض وحاول البعض تفسير هذا الاختلاف بان الله سبحانهُ خالف ناموس الطبيعة في مسألة الماء لكي لا يجمد البحر كلهُ ويموت ما فيهِ من السمك لانهُ اذا تقلص الماء حينما يصير جليداً وجب ان يغرق في الماء الذي لم يبرد مثلهُ فتتعرَّض طبقة أُخرى من الماء للبرد وتجمد وتغرق ثم تتعرض طبقة ثالثة للبرد وتغرق وهلمَّ جرّاً الى ان يجمد البحر كلهُ . ثم ظهر بالمشاهدة والامتحان ان ما يحدث في الماء اذا جمد يحدث في كل الاجسام التي تجمد وتتبلور بعد ما تكون سائلة كالحديد والنكل والكوبلت. والتمدُّد تابع التبلور والناموس الاول ناموس التمدُّد بالحر والتقلص بالبرد صحيح ولا داعي للقول ان الله خالف ناموس الطبيعة لكي لا يجمد البحر ويمكن التوفيق بينهُ وبين تمدُّد الماء اذا اشتدَّ بردهُ وجمد بادخال تعليل آخر وهو ان التبلور ينظم الدقائق في اشكال تبعد الدقائق بعضها عن بعض فيتسع الجرم

ويقول الفلاسفة النظريون ان الحق حق لذاتهِ سواءٌ طابق الواقع او لم يطابقهُ لان المطابقة امر ظاهري فلا وجودها يثبت الحق ولا نفيها ينفيهِ لان عدم المطابقة قد يكون من خطإٍ في نظرنا او فهمنا كما يقول اصحاب الوحي ان كل ما يحسبونهُ وحياً حقٌّ وكل ما

يناقضهُ او ما يخالفهُ باطل ولو شهدت كل حواسنا بصحتهِ وجاء اختبار كل الناس مؤيداً لهُ

وقد يظن لاول وهلة ان الفلسفة العملية تناقض الوحي او الاعتقاد بوجود الله وكل مذاهب الفلاسفة النظريين . وهذا غير صحيح ولا هو المراد من الفلسفة العملية وانما يراد بها التوفيق بين المعتقدات الدينيَّة والنظريَّة و بين الحقائق العملية لانهُ ان كانت العقائد الدينيَّة والنظرية نافعة او صالحة لتكوين معزية للانسان مدرّبة لهُ في اعمالهِ وافكارهِ فهي مما تطلبهُ الفلسفة العملية وتؤيدهُ واي نفع اكبر من نفع الاعتقاد الذي يعزي النفس ويصلح السيرة والسريرة

ثم اننا اذا قلنا ان هذا الشيء نافع لا نقيّد نفعهُ بما نستفيدهُ منهُ من الغذاء او من اللذة او من الراحة بل ننظر في النفع ايضاً الى كل ما ترتاح اليهِ النفس من تفسير الغوامض وحل المشكلات وموافقة الآراء القديمة الراسخة فيها او عدم مناقضتها مناقضة مؤلمة او التساهل معها الى ان يتغلب اصح الرأيين على الآخر بسهولة

وقد يظن ايضاً ان الفلسفة العملية تناقض الاديان كلها وهذا الظن فاسد على ما صرّح بهِ الاستاذ جمس لانهُ اذا وجدت سيرة اصلح من سيرة ووجد اعتقاد يصلح السيرة او يساعد على اصلاحها وجب التمسك بهِ . ويعسر على الناس ان يفصلوا بين ما هو حق وما هو صالح فيعتقدوا ان الحق قد لا يكون صالحاً وان الصالح قد لا يكون حقاً وان فصلوا بينهما الآن فلا بدّ من ان يصلوا بينهما غداً . الّا ان الامور التي نحسبها حقائق قد تتناقض فاذا وقع فيها ذلك جرت على ناموس بقاء الاصلح فالاصلح منها يبقى والذي هو دونهُ او الذي لا يصلح لبقاء يزول والفلسفة العملية تبحث في ذلك وتساعد اتباعها على البحث عن الحقائق غير مقيدة بادلة اهل النظر واقيستهم المنطقية ولا باقوال اهل الحس وشواهدهم الحسيَّة بل تتبع الاقيسة المنطقية والشواهد الحسيَّة معاً ولا ترفض دليلاً مهما كان الّا بعد ان تنظر فيهِ وترى فسادهُ وقياسها الذي تعتمد عليهِ الفائدة العملية في اصلاح سيرة الانسان وسريرتهِ وتفسير حوادث الكون تفسيراً معقولاً

وسنقف عند هذا الحد الى ان نطّلع على سائر خطب الاستاذ جمس في هذا الموضوع ونقف على ادلتهِ وشروحهِ فنقتطف منها ما يحتملهُ المقام